العدمية كانحطاط والعدمية كأفق في فلسفة نيتشه

Nihilism as decadence and nihilism as a horizon in Nietzsche's philosophy

بن منصورنصرالدين

جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، nasrddine.benmansour@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/10/16 تاريخ القبول: 2022/07/27 تاريخ النشر: 2022/07/31

ملخص: تعتبرالعدمية بمثابة أكبر حدث عرفه الغرب الحديث، لأنها تطبع الثقافة الغربية في مختلف مظاهرها،ولأنها من جهة أخرى هي نتيجة لسيادة وهيمنة القيم والمثل العليا للحضارة الغربية.ولأن ظهورها سيشكل إيذانا بحدوث انعطاف جذري في الحضارة الغربية، بحيث لن يعود الغرب مركز الكون ومهد الحضارة الإنسانية ومحورها.فالمظهر الأول للعدمية يمكن نعته بالمظهر السلبي، من حيث هو علامة على مرض خطير ألم بالحضارة الغربية يلقبه نيتشه "بالانحطاط" ،أما المظهر الثاني للعدمية فهو يمثل مظهرها الإيجابي، وهو الذي ينعته نيتشه بالعدمية الانتشائية وهي تمثل اليوم في نظر بعض الفلاسفة المعاصرين الأفق الجديد للتفكير في الغرب المعاصر.وهذا ما يدفعنا لطرح الاشكال التالي: ماهي العدمية عند نيتشه؟ وماهي مظاهرها؟ وكيف تكون تارة اعلان على الانحطاط؟ وتارة أخرى اعلان عن أفق جديد للتفكير وتجاوز لأزمة الحضارة الغربية؟

كلمات مفتاحية: العدمية.، الانحطاط.الجسد، العدمية كأفق.

Abstract: Nihilism is considered as the largest event known to the modern West, because it imprinted Western culture in its various manifestations, and because on the other hand it is the result of the domination and domination of values and ideals of Western civilization, and because its emergence will mark the occurrence of a radical turn in Western civilization, so that the West will no longer be the center of the universe and the cradle of human civilization. The first aspect of nihilism can be termed the negative aspect, in that it is a sign of a serious illness that afflicted Western civilization, which Nietzsche called “degeneration,” while the second aspect of nihilism represents its positive aspect, which Nietzsche describes as ecstatic nihilism, which today, in the eyes of some contemporary philosophers, represents the horizon. This is what prompts us to present the following forms: What is nihilism in Nietzsche? What are its manifestations? And how to be at times an announcement on decadence? And at other times, announcing a new horizon of thinking and overcoming the crisis of Western civilization?

Keywords: nihilism, degeneration,a body. ecological nihilism,

1.مقدمة:

تعتبرالعدمية بمثابة أكبر حدث عرفه الغرب الحديث، لأنها تطبع الثقافة الغربية في مختلف مظاهرها، ولأنها من جهة أخرى هي نتيجة لسيادة وهيمنة القيم والمثل العليا للحضارة الغربية. ولأن ظهورها سيشكل إيذانا بحدوث انعطاف جذري في الحضارة الغربية،بحيث لن يعود الغرب مركز الكون ومهد الحضارة الإنسانية ومحورها. فالمظهر الأول للعدمية يمكن نعته بالمظهر السلبي، من حيث هو علامة على مرض خطير ألم بالحضارة الغربية يلقبه نيتشه "بالانحطاط" ،أما المظهر الثاني للعدمية فهو يمثل مظهرها الإيجابي، وهو الذي ينعته نيتشه بالعدمية الانتشائية وهي تمثل اليوم في نظر بعض الفلاسفة المعاصرين الأفق الجديد للتفكير في الغرب المعاصر. وهذا ما يدفعنا لطرح الاشكال التالي: ماهي العدمية عند نيتشه؟ وماهي مظاهرها؟ وكيف تكون تارة اعلان على الانحطاط؟ وتارة اخرى اعلان عن افق جديد للتفكير وتجاوز لازمة الحضارة الغربية؟.

ولمعالجة هذه الاشكالية سنحاول تحليل المظهرين المتناقضين للعدمية، مع الوقوف بشكل خاص عند المظهر الثاني، -بما هو الفضاء الجديد للفكر الفلسفي الما بعد-حداثي La poste modernité philosophique وذلك بهدف إبراز قيمته ودلالته بالنسبة للفكر الفلسفي المعاصر.

2.مفهوم العدمية:

جرت طبيعة الدراسات أن تحدد بدقة معاني الألفاظ الواردة في عناوينها الدراسية، وذلك لان لكل لفظة دلالتها اللغوية التي تميزها عن سائر الألفاظ لذا ارتأينا وقبل الولوج في البحث أن نحدد أولا المعنى المقصود من لفظة العدمية بمعناها الفلسفي ونميزه عن الألفاظ المشابهة له.

-العدمية: وهي نزعة تقوم على النفي والانكار في الفلسفة والأخلاق والسياسة (إبراهيم، 1983)، وعليه فالعدمية ثلاثة اقسام فلسفية أخلاقية سياسية.

-العدمية الفلسفية وهي مطلقة أو نقدية، الأولى تتميز بإنكار وجود كل شيء، والثانية تتميز بإنكار قدرة العقل على الوصول الى الحقيقة، وكلا الحالتين مرادفة للريبية.

-العدمية الأخلاقية وهي مذهب نظري أو نزعة فكرية، فاذا كانت مذهبا نظريا دلت على انكار القيم الأخلاقية وابطال مراتبها، وإذا كانت نزعة فكرية دلت على خلو العقل من تصور هذه القيم.

- العدمية السياسية وهي اصطلاح سياسي يطلق على المذهب السياسي والاجتماعي الذي يقوم على انتقاد الأوضاع السياسية والاجتماعية، وعدم الاعتراف بشرعية القيود القانونية المفروضة على الأفراد. (صليبا، 1982)

3.مفهوم العدمية عند نيتشه:

تعتبر العدمية من القضايا الجوهرية التي تمحور حولها الفكر النقدي النيتشوي، وهي اما أن تتجلى كإرادة نفي وحينها تكون سالبة، واما ان تتجلى كإرادة اثبات وحينها تكون فاعلة، فالأولى ارتبطت بأفول القيم،أما الثانية فهي منبع انبعاث القيم. أي القيم الجديدة

-العدمية بماهي انحطاط: يلخص نيتشه نقائص عصره في عبارة واحدة هي انكار الحياة، على أن تفهم الحياة هنا بمعناها الواسع، من حيث هي المبدأ الكامن وراء الحضارة، وهي أصل كل القيم الفكرية والأخلاقية والسياسية والعقدية. وتجد هذه الصيغة تعبيرها هيمنة الروح الانكارية على الحضارة الغربية، وسيادة مبدأ تبخيس الحياة والوجود، حيث يصبح السلب هو المظهر الأساسي للوجود، والنفي أو الانكار هو المظهر الأساسي للإرادة، فيصبح النموذج الارتكاسي هو النموذج المهيمن على الحضارة والانسان.

ان العدمية النافية تعني اللاوجود، بل قيمة عدم أولا، حيث تأخذ الحياة قيمة عدم بمقدار ما يجري نفيها والحط من قيمتها، عندئذ تصبح الحياة كلها وهمية. (جيل، 2001) بمعنى أن منطق العدمية بما هي إرادة نفي ينزع الى اعتبار الحياة بلا قيمة، وبلا معنى، بل ويذهب الى افقاد الحياة قيمتها ومعناها، أي أنها دعوة الى الانسحاب الكلي من الحياة والتوق الى العالم الاخر، وعليه فاذا كانت القوى التي تهيمن هي قوى منفعلة أي ارتكاسية أو سلبية فان الإرادة تتجه الى الانحدار بالقوة، وهو ما يبينه التاريخ المظلم للإنسان أي انحطاط الغريزة» (فريدريك، 2010) اذن فالعدمي بالضرورة هو صاحب نزعة تشاؤمية ، يغلب عليه الاعتقاد أن الحياة كما هي من الأفضل عدم وجودها، وأن الحياة كما ينبغي أن تكون لا وجود لها أو أن ذلك مجرد وهم وخداع ذلك ما يجسد الحياة الآفلة الضعيفة الضجرة المذمومة، وهي في نهاية المطاف تجسيد لغريزة الانحطاط. (فريدريك، افول الاصنام، 1996) فأن يتمرد الانسان على الحياة ويدينها معناه الزيف والعبثية، ولعل ذلك ما يعبر عنه الرجل الانكاري الذي يحكم على العالم كما هو بأنه من الواجب ألا يوجد، وعلى العالم كما يجب أن يوجد بأنه غير موجود، والنتيجة تبعا لهذا هي أن الوجود لا معنى له. (الرحمن، 1975) اذا فأن نحيا أمر لا معنى له ولا قيمة، وحينئذ سيكون الخلاص النهائي من

عبثية الوجود وبالتالي عبثية الإرادة . وعلى هذا الأساس يبدوا أن الإرادة بما هي قوة نفي قد أدت الى سلب الحياة كل قيمة، كما انتزعت من القيم كل إيجابية، وسحبت من الانسان كل القدرة على التغير، بل انه جرد من إمكانية تقبل الحياة كما هي على الأقل، يبقى الهروب من قرف الوجود والخلاص فقط بالجمود والسكون أبدا وبصورة أشد ضعفا وسلبية، وبعد نفي كل شيء كان لابد من الانتفاء، وهكذا تشكل العدمية الارتكاسية امتدادا بصورة ما للعدمية النافية.

اننا حسب نيتشه عندما نعتبر الحياة بلا قيمة وبلا معنى فان هذه الحياة تنتفي وتضمحل، "حتى أن الأقوياء والسعداء يصبحون ضعفاء عندما يجدون أنفسهم في مواجهة غرائز القطيع المنظمة، وجبن الضعفاء وكثرة العدد". (فريدريك، نيتشه وإرادة القوة، 2010) وذلك بعد أن تتحول القوى الفاعلة التي تثبت الحياة الى قوى منفعلة تنكر الحياة، وبدل الفعل تتحول الى مجرد رد الفعل الى أن تصل الى مرحلة الانطفاء التام ولعل هذا ما يوحي به خطاب نيتشه في كتابه العلم المرح: "اما أن تلغوا احترامكم للأشياء المقدسة، اما أن تلغوا أنفسكم أنتم! العبارة الأخيرة هي العدمية، لكن الأولى الن تكون هي كذلك العدمية؟." (فريدريك، العلم المرح)

انها التجسيد الفعلي للإنسان الارتكاسي أي الانسان الأخير الذي مجد الرتابة والتقوقع على الذات ومن ثمة جاء رفض نيتشه المطلق لكل تصور ينكر الحياة لذلك نجده يرفض الجمود والسكون والركون الى الحلول الجاهزة التي اقترحتها الفلسفات المثالية والميتافيزيقية كفلسفة سقراط وأفلاطون وديكارت في الفسلفة الحديثة والأديان السائدة. كالمسيحية(الحليم، 2010) وعلى هذا الأساس يمكن الانتهاء الى أن رفضه لتلك الحلول مستمد من كونها لا تزيد في جوهرها عن حقائق مرعبة يديرها مخادعون ومنافقون من أجل الإيقاع بالإنسانية وايهامها بوجود عوالم أخرى أفضل من العالم الأرضي. (الحليم، 2010) عندئذ سيعرف الانسان لا محالة عصر الانحطاط والأفول بعد أن أصبح في قبضة أسوا الأيدي وأنه محكوم من جانب غير المناسبين والحمقى ورجال الخداع والانتقام، من يسمون بالقديسين أولئك الذين يشوهون العالم والذين يطعنون الإنسانية. (فريدريك، هذا الانسان) ذلك ما أسسوا له انسان منحط وحياة آفلة وبالتالي أفول القيم أو غروبها.

لقد تدهورت الحضارة الغربية بعد أن سيطرة العبثية وبعد أن فقد انسانها المعنى والقيمة، ذلك ما يرجع الى العدمية التي كانت السمة الغالبة على التصورات الدينية اليهودية والمسيحية وكذا الفلسفات العقلانية والمثالية الحديثة التي كانت امتدادا للفلسفة اليونانية خاصة فلسفة سقراط وأفلاطون ومن بعدها فلسفة القرون الوسطى، وتحديدا الفلسفة الاوغسطينية والاكوينية، أما الديانة المسيحية فقد

نالها نيتشه بضربات المطرقة باعتبار أنها لم تقم طوال تاريخها سوى بتكريس قيم الضعف والانحطاط اذ أن المسيحية ليست ابولونية ولا ديونيسية، فهي تنكر القيم الجمالية،. وبأعمق معنى هي عدمية. (فريدريك، هذا الانسان) إذا فهي التمثيل الفعلي للقيم الحاقدة على الحياة على الأرض، على الغريزة، وبالتالي على الانسان وهكذا نجد أن ما يريده الكاهن هو بالضبط انحطاط البشرية. (فريدريك، هذا الانسان) حيث يجعل منها انتقامية وانكارية، لما تتنكر لكل ما هو حيوي اثباتي وتنتقم من كل ما من شأنه أن يعلو بها ويجعلها قوية، لذلك يرى نيتشه أنه لا يجب على الانسان ان يذهب الى الكنائس إذا أراد أن يستنشق هواء نقيا. (فريدريك، ما وراء الخير والشر، 2006) فليس هناك غير حياة ضعيفة، منحطة ارتكاسيه تغمرها روح الشعور بالذنب والخطيئة.

هكذا يتوصل نيتشه من خلال تحليله النقدي لمفهوم العدمية ولعلاقتها بأفول القيم في الحضارة الغربية الحديثة الى أن الدين المسيحية واليهودية كانت على الدوام عاملا حاسما وباعثا قويا على خلق قيم تناصر أخلاق الضعفاء، أخلاق القطيع، أخلاق الغوغاء التي تحوي مطلق الكراهية والحقد الدفين، ما جعلها بمثابة انتفاضة ضد الحياة ضد الغريزة ، ضد الجسد الذي أصبحت عداوته شبه مقدسة في العرف الكهنوتي والمسيحي، حين أصبح كل شيء متهودا متمسحا، وغوغائيا لقد أصبح الحقد خلاقا وتولدت عنه القيم الغوغائية، قيم الضعفاء والمنحطين الذين حولوا الضعف الى شيء جدير بالتقدير، والعجز الى طيبة قلب، والوضاعة الى تواضع، الخضوع و المهانة الى طاعة، المسالمة والتسكع الى صبر، بل انها تسمى الفضيلة ذاتها. (إبراهيم ي.، 2007)

وعليه يمكن القول أن غاية تلك النزعات التشاؤمية المسيحية الميتافيزيقية العقلانية المثالية، انما هي احتقار الحياة والحط من شأنها بنبذ العواطف والغرائز الأصلية في الانسان خاصة والمتأمل للمرحلة المسيحية يجدها لا تعدوا كونها مجرد شذوذ عن الحقيقة، وان كانت تعبيرا عن قوة الضعفاء وكثرتهم لكنها لا تطلب السيطرة على العواطف بل تطلب وأدها، وعملت على اعتبار الدافع الجنسي شيئا قذرا مع أنه بالإمكان تهذيبه ولهذا هزأ نيتشه من فكرة الحياة الثانية وعالم آخر غير العالم الأرضي حلم فيه المسيحيون حيث يقتص فيه الضعيف من القوي. (حسين، 2000) تلك هي شرعة الوعي المزيف الذي بثته المسيحية في الإنسانية التي أصبحت تعيش على عبادة الأوثان، أوثان في الأخلاق، أوثان في السياسة، أوثان في الفلسفة، تلك الهة باطلة اخترعتها ثم عبدتها، فكان ان ظلت سواء السبيل وأخذت تتخبط وتتدافع حتى بلغت أقصى دركات الانحطاط والعدمية وكأنها كانت تريد منذ البدا الفناء. (الرحمن، 1975)

اذ سيكون تقديس الإنسانية لتلك الأوثان هو ذاته معول هدم وغسق مزمن للقيم الحقيقية التي تثبت الحياة وتعلي من شان الأرض وهكذا تكون المسيحية قد ضللت الانسان الأوربي عندما ساعدته على اختلاق عالم آخر مثالي وانتقاص قيمة العالم الأرضي والجسد والحقيقة، مما جعله يركز أمله في العالم الآخر بدلا من أن يسعى الى تحقيق الكمال في الزمان والمكان. (صفاء، 1999) ومن ثمة فقد جعلته أسيرا لأفكار مرعبة، مريضا مثيرا للشفقة، حاقدا على نفسه، كارها لجسده محتقرا له هذا ما أدركته الكنيسة، فقد أفسدت الانسان،أضعفته، لكنها ادعت أنها أصلحته. (فريدريك، افول الاصنام، 1996).

ان المبادئ الديموقراطية العدمية السياسية هي الأخرى لم تولد الا من رحم الفكر الكنسي الذي زرعه الكهان والرهبان،ورجال الدين عموما فالميل الى الايمان بعالم غير أرضي يتبعه على الدوام الميل الديموقراطي الذي لا يعتبر حسب نيتشه الا شكلا من أشكال الانتفاء لهذا كانت الحركة الديموقراطية هي وريث الحركة المسيحية. (فريدريك، ما وراء الخير والشر، 2006) تكفر بالسادة الأقوياء وعلى النقيض من ذلك فإنها تقدس الضعفاء والمنحطين، والذين بسوء تقويمهم للأشياء قلبوا القيم وسموها بغير ما هي عليه في الواقع فكان الكل متفقون على الاكفهرار اللاإرادي والضعف غير المقصود الذي يبدوا أنه يهدد أوربا ببوذية جديدة. (فريدريك، ما وراء الخير والشر، 2006) وعلى هذا الأساس ستكون المواجهة التي قرر نيتشه قيادتها ضد الروحانيين وفلاسفة التصوف المثاليين، من خلال عملية مضادة، أي اثبات أن الروح اكثر سطحية مما نعتقد، وبالتالي فالإيمان بالجسد أكثر أهمية من الايمان بالنفس، لأن ظواهر الجسد أكثر غنى من ظواهر الروح والنفس. (Nietzche، 1995) وحينئذ ستكون الأولى لا محالة دوما القائدة، اما الثانية فهي دوما منقادة، خاصة وأن الروح مجرد ضميمة للجسد الذي هو النص الأصلي،وهو المركز وهو المتن، في حين تبقى الروح مجرد هامش.

ان المتأمل لما تطمح اليه المسيحية لا يجد غير أنها تحتقر الجسد وتتوق الى المجد والعظمة في ذلك الاحتقار، فكانت الروح بذلك شغوفة بجعل الجسد ضعيفا ناحلا متوهمة أنها حينئذ يمكنها الخلاص والانعتاق من العالم الأرضي التي يدب عليها، لكنها في الحقيقة ما كانت الا على مثال ما تشتهي لجسدها، ناحلة قبيحة، جائعة. (فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938) وتبعا لذلك لا يجد الا أقنعة زائفة تجلت في اختراع مقولات أصنام واوثان، كالله، التواضع، الرحمة، المثل الأعلى الزهدي، الشفقة وغيرها، هذه المقولات تحدث عنها نيتشه وحللها في كتابه جنيالوجيا الأخلاق، فكان أن عمقت جراح الإنسانية برمتها لما خلقت هوة سحيقة بين الانسان والجسد، بين الانسان والأرض، بين الانسان والغريزة، ذلك هو الانكار

المطلق الذي يجسد العدمية وهي الحال التي وصلت اليها أوربا في أواخر القرن التاسع عشر، فلم يعد الناس يؤمنون بشيء، ولا يجدون قيمة في أي شيء من شؤون الحياة والوجود...

فكان التشاؤم وانكار الحياة هما الطابع الغالب على تفكيرهم ونظرتهم للوجود. (فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938) لكن ما ينبغي التنبيه اليه أن الانسان الأوربي الذي اتسم بالنفي والانكارية لم يكن في الحقيقة غير تابع لأوائل العدميين ووريثا لأفكارهم العدمية فقد حمل أعظم الحكماء في كل عصر نفس التصور عن الحياة أنها عديمة القيمة ... لما يقولونه عنها دائما وفي كل مكان نفس النبرة، نبرة شك، كآبة مبهمة، ضجر من الحياة ومقاومتها، سقراط نفسه لحظة احتضاره قال: "ما لحياة سوى مرض عضال". (الرحمن، 1975) وفي قوله هذا انكار ونفي للجسد وللحياة والعالم الأرضي وقيمتهم

هذا ويمكن الانتهاء الى أن العدمية عدمية الانسان الأوربي الحديث قد اتضحت بجلاء في انتصار قيم العبيد الضعفاء وأفول قيم السادة الأقوياء، حين أسست مفهوم الوجود على الدلالة الأخلاقية، والشعور بالخطيئة والانحياز للضعف والانحطاط والفشل في مقابل معاداة الأسياد الجبابرة والأقوياء النبلاء، وحطمت كل تراتبية بواسطة مبدأ تساوي الأرواح كلها امام الله. (فريدريك، افول الاصنام، 1996) خاصة بعد أن ساد الزهد المسيحي الذي كان مظهرا من مظاهر العداء اللدود لكل ما هو حسي غريزي، وأن الزاهدين كانوا دوما أصحاب الإرادة الضعيفة والمنحلين ومن أولئك الذين يختارون النظام اللاترابي لإعلان العداء على عواطفهم وعلى كل ما هو أرضي ولعل هذا ما أشار اليه نيتشه حين أكد في نقده للقيم التقليدية أن الحل المسيحي القاضي باعتبار العالم ذميما وقبيحا قد صير العالم ذميما وقبيحا. حينئذ أصبح الانسان لا يرى غير عالم سماوي ومثالي لا وجود له، الا كونه أوهاما زائفة تجعل منه شقيا وتعيسا في الوقت الذي لا يكون فيه الهدف عنده غير إدراك السعادة، بيد أنه بنزعته تلك، يكون قد جانب السبيل الأمثل، فالسعادة لا تكمن في التعلق بالعالم الاخر ولا في السماء ... ان تقسيم العالم الى عالم حقيقي وعالم ظاهر سواء على الطريقة المسيحية،أو على طريقة أفلاطون أو طريقة كانط الذي ليس في نهاية الأمر سوى مسيحي مستتر لا يمكن ان يصدر الا بإيعاز (Fink، 1965) من الانحطاط، ولا يمكن أن يكون الا علامة حياة آفلة. فلم يعد الانسان حينئذ غير كائن متوحش، أعمى البصيرة، لا يرى الا الأحقاد والضغائن ولذا جاءت سعادته سلبية منفعلة، هي سعادة التأمل والامتناع عن الحياة. (فريدريك، العلم المرح) وحتى حب الذات والمجد والثراء والعلو بالحياة فهي عنده من الرذائل والشرور التي ينبغي الكفاح من أجل تجنبها او بالأحرى التخلص منها لأنها هي سبب الشقاء بزعم كل العدميين، رجال المسيحية، اليهودية، العقلانية،

العلم، أخلاق الواجب، الديموقراطية، الاشتراكية، وعلى هذا الأساس نجد أن في كل دعاة الاخلاق كما في اللاهوتيين وقاحة مشتركة، أنهم يتوخون اقناع الناس أنهم في أشد المرض وأنه لا غنى لهم عن علاج أخير صارم وجذري. (Sara، 1972) وما ذلك عندهم الا لكون الحياة الأرضية والغريزية أصبحت لا تطاق، فاتجهوا الى اقتلاع الغريزة من جذورها ولكنهم في الوقت نفسه يكونون قد اقتلعوا الحياة ذاتها من جذورها وما كان ذلك في الحقيقة الا مجرد أعراض للضعف والتدهور، وماكان ذلك في جوهره طمس وكذا الغاء لإمكان حركية الحياة واقصاء لتعدد الموجود. (عادل، 1986) حيث سادت العدمية، وبدأت النهاية بالسير نحو الأفول والانحطاط.

ان تحليل نيتشه للعدمية بماهي نفي يثبت مدى التضايف بينها وبين بزوغ إشكالية أفول القيم، لكن السؤال الذي سيفرض نفسه الان هو كيف يمكن تجاوز العدمية؟ وكيف يمكن التغلب عليها وبعث القيم من جديد؟

4.تجاوزالعدمية و انبعاث القيم:

العدمية كأفق جديد: ان الحديث عن العدمية ليس على الدوام حديثا عن النفي والارتكاس وهو ما أشار اليه جيل دلوز حين أكد على أن لتاريخ العدمية الطويل نهايته، حيث يفقد النفي مقدرته الخاصة به، يصير فاعلا، يبدل النافي نوعيته، وينتقل الى خدمة الاثبات، انها إرادة القوة التي تحول النافي وتعيد توليد الاثبات في آن معا، ليبقى الاثبات كصفة واحدة لإرادة القوة، ويبقى الفعل كصفة واحدة للقوة، وتبقى الصيرورة الفاعلة كتمثال خلاق للمقدرة والإرادة. (فريدريك، العلم المرح) وبهذا يبدوا ان الحل النتشوي للخروج من أزمة غياب المعنى والقيمة وهو معايشة الوجه الإيجابي للعدمية والمتمثل في تحطيم الواح القيم التقليدية أو الأصنام والأوثان التي تأسست عليها ميتافيزيقا الأخلاق السائدة فمن أراد ان يكون مبدعا سواء أكان في الخير أم في الشر فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره وبتحطيمه تحطيما. (جيل، 2001)

ان اهتمام نيتشه بتشخيص العدمية الحديثة هو مقدمة ضرورية لعلاجها بصورة إيجابية، ولذلك فالاتجاه السائد في فكرة عدمي أن يقوض كل المفاهيم والتصورات السابقة، فيقوض الأخلاق بتوضيح أساسها اللاأخلاقي ويحطم العقلانية بتوضيح أساسها اللاعقلاني، ويلغي العالم الأخر الميتافيزيقي ليعبر عن مظاهره بصورة إنسانية وهي بذلك ليست الا مرحلة متوسطة والأدق أنها مرحلة انتقالية نعبر فيها من رد الفعل الى الفعل، من النفي الى الاثبات، وعليه فحلولها أمر حتمي، وهي تعني السقوط الأخير

للحضارة المسيحية في أوربا، كما أنها تمهد الطريق لفجر جديد، لإعادة تقويم جديد.وانبعاث لقيم جديدة تؤكد على الجسد والحياة والعالم الأرضي (فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938)لأجل ذلك سيكون منطلق هذا التقويم هو الشروع في الهدم، أي هدم الأخلاق ونسف كل المبادئ والأحكام القيمية الميتافيزيقية التي استمدت مشروعيتها من مجرد أوهام باطلة، وتلك هي عملية الهدم التي تتيح البناء الحقيقي للقيم ، فلنحاول اذن ، أن ننقذ الإنسانية من هذا الانحلال العدمية السالبة الذي تردت فيه بأن نبدد أولا كل الأوهام التي قدستها حتى الآن، وأن نحطم الأصنام التي عبدتها، حتى ما اذا انتهينا من هذا العمل الشاق، بدأنا نذيع شرعة القيم الجديدة لحياة جديدة تبلغ أعلى درجات السمو والارتقاء. (صفاء، 1999) ولعل هذا ما يبدوا حين نتأمل تأكيد نيتشه على أننا حين نمارس حسنا النقدي فليس في ذلك شيء تعسفي أو شخصي، وغالبا ما يكون هذا على الأقل دليلا على قوى حية فينا تعمل مستعدة لتفجر قشرة ما، أننا ننفي، يجب أن ننفي بقدر ما يريد شيء فينا أن يحيا ويثبت نفسه. (الرحمن، 1975) فمن يبتغي اثبات الحياة والعلو بها يجب أن يبدع، ومن يبتغي الابداع يجب أن يدمر بلا انقطاع بدليل أن جميع المؤمنين بجميع المعتقدات يحسبون أن الد أعدائهم من يحطم الالواح التي حفروا عليها سننهم، ذلك هو الهدام، ذلك هو المجرم، غير أنه هو المبدع. (فريدريك، العلم المرح) فاذا كان الانسان يبتغي التخلص من تلك العدمية، وأن يفتح لنفسه سبيلا فسيحا باتجاه مستقبل زاهر، واذا كان عازما حريصا حقا على أن يجعل لوجوده قيمة، وأن يسموا بالحياة في سلم التصاعد نحو القداسة والعلاء، فسيكون لزاما عليه اتخاذ العدمية نفسها وسيلة للنضال والكفاح، من أجل القضاء على كل الأصنام المزيفة التي عاشت عليها الإنسانية فكانت علة تعاستها، لنصل بالضرورة الى بعث القيم بعد أفولها.

ان الابداع عند نيتشه نتيجة حتمية لتلك الحركة النقدية التي تستلزم الصراع مع قوى النفي ، وحيث لا يعبر الخلق فقط عن قوى فاعلة ، فانه تجسيد لجملة من العلاقات بين القوى المتضادة، حيث تكون الغلبة لقوى الاثبات على قوى النفي ، خاصة وأن الابداع يقترن بالتدمير الفاعل، لذلك فان أحد الشروط الأساسية للإثبات هو النفي والتدمير بما يحملانه من معاني التخليص والتحرير، تحرير الحياة من أثقالها وأوزارها ... والبحث لها عن قيم جديدة تجعل من الحياة اكثر خفة وفاعلية، أن من معاني الاثبات هو اختراع أشكال جديدة للحياة. (فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938) أشكال تثبت الوجود الإنساني على أرضه وتغمره فرحا وطموحا، فتعمق الهوة بينه وبين ما كان علة للأحقاد التي كانت تسكنه جراء ما بثته فيه الكنيسة من أوهام وخرافات باطلة.

ان الابداع اذن، ليس غير خلق عالم جديد بقيم جديدة، ولا يكون ذلك الا بالاستثمار في الرغبة الملحة التي تسكن الانسان والتي تجعله ينزع باستمرار الى تجاوز ذاته، وقلب القيم السائدة،أي القيم التقليدية التي كانت سببا في الانحطاط، فهو يعني خلق ما يجعلنا نتعلق بالحياة ولا نحتقرها، وما يجعلنا نسموا بالغريزة ولا ننبذها، ويلزم عن ذلك أنه لا ينبغي أن يكون منبع انبعاث القيم سماويا الهيا، بل أرضيا إنسانيا، ولا ينبغي ان يكون العقل ولا الروح، بل الجسد والغريزة.

ان النقد الجينيالوجي الذي تبناه نيتشه قد أوصله الى دحض المقولات الميتافيزيقية التي قامت عليها الأخلاق القديمة، ولكنه في الوقت ذاته أبدع مقولات جديدة تساير وتؤسس لطرحه الجديد، فتكون هي الباعث على قلب القيم الذي قامت عليه الفلسفة النيتشوية، ولعل أهم تلك المقولات نجد إرادة القوة، ومن خلالها مقولة الانسان الأعلى.

أما مقولة إرادة القوة فهي تعني تلك الطاقة الخلاقة والابداعية التي تمكن الانسان فعليا من تجاوز ذاته، والسمو بها من الأدنى الى الارقى، حيث لن يكون الباعث على الارتقاء شيئا خارجيا، ولا عقلانيا أو مثاليا، بل سيكون باعثا من الذات نفسها، من الجسد ذاته، ولكن رجوع نيتشه الى الجسد لا يعني أنه حدود الانسان، بل ينظر اليه كإحساس، اذ تتحقق القيمة القصوى بالخلق والابداع، وبتجاوز الانسان لنفسه.

لقد قلب نيتشه ميتافيزيقا الأخلاق الغربية بمقولة إرادة القوة ذلك أن السعادة ليست الهدف بل الهدف هو الإحساس بالقوة، ففي الانسان والإنسانية ككل توجد قوة هائلة وكبيرة تبحث عن طريق ومخرج، لأن تتحقق، لأن تنفق وتخلق. (الحليم، 2010) تلك الإرادة هي سر الوجود وجوهره فليس الوجود عنده الا الحياة وليست الحياة الا إرادة، وليست الإرادة الا إرادة قوة ... أي إرادة تسلط واستيلاء وتملك وإخضاع ... انها تنزع الى السيادة والنمو والتوسع .وبما أن الانسان امتاز بقدرته اللامحدودة على خلق ما يتجاوزه ويسمو فوقه، فانه يلزم عن ذلك أن منبع القيم ينبغي أن يكون للطبيعة الإنسانية بما فيها من غرائز حب السيطرة وإرادة القوة.

القيمة اذن ابداع انساني خالص قوامه الغرائز التي تعبر عن كل ما هو حيوي أرضي، فلأشياء عنده لا توجد لها قيمة ناتجة عن فعل هو التقويم الذي يعبر به الانسان عن رغباته وغرائزه، أي عن إرادة القوة التي تعتبر المعيار الذي يجب علينا أن نرجع اليه في حكمنا على الأشياء وتقويمنا لها وهكذا كان نيتشه مسكونا بهاجس الحياة بما هي تقويم، والتقويم بما هو الخلق والابداع الدائم.

ان إرادة القوة بما هي اثبات تجعل الانسان أكثر اندفاعا، أكثر توهجا بالحياة، وأكثر اقبالا على العالم الأرضي، حيث يصبح أكثر تقبلا له ويزداد تعلقا به خاصة عندما يدرك أنه قوي بما فيه الكفاية، فيجعل كل شيء يتحول لصالحه وهكذا فخلاص الانسان وسعادته رهن بجسده لأن الايمان والاعتقاد بالجسد أكثر أهمية وضرورة من الايمان بالنفس والروح أو الفكر. وبهذا فالقداسة للجسد والغريزة وليست للعقل والروح، اذ الانسان بحسب التصور النتشوي جسد لا غير وما الروح الا اسم يطلق على جزء من الجسد. فقد كانت الروح فيما مضى تحتقر الجسد وتنبذه، وكان العقل يرى في الغريزة عيبا ورذيلة، ذلك ما أفقد الانسان معنى الأرض، أي معنى الحياة الحقيقية التي لا حياة غيرها، أما الان فيجب قلب القيم، يجب أن نعد الجسم أعظم من الروح ، فالجسم هو العقل الأكبر، أما الروح فهي العقل الأصغر فما الروح غير دنس وفقر. تلك هي العدمية الفعالة التي تتأسس على إرادة القوة بما هي اثبات، فلا تنزع للبناء الا بعد الهدم، وعلى الأنقاض، فلا يمكن أن يسود نظام كيفما كان دون أن تسبقه فوضى شاملة تزعزع كل أركان الأنظمة السائدة، تلك هي العدمية التي يراها نيتشه مرحلة ضرورية ضرورة الحياة، فحين تسود هذه العبثية والفوضى ، فيكون في ذلك بشارة تزف الى الانسان، أنها بشارة بحلول شرعة القيم الجديدة، قيم العلو والانتصار للحياة على كل ما من شأنه أن يضعفها ويحط من قيمتها فان نحيا معناه أن نلقي باستمرار بعيدا عنا شيئا ما ينزع الى الفناء، أن نكون قساة بلا رحمة بالنسبة لكل ما هو ضعيف وبال فينا...أن نكون عديمي الشفقة تجاه المحتضرين، البؤساء والعجز. (الرحمن، 1975) فان نقلب القيم معناه أن نثبت العلو للأرض، فهي تستحق أن نعيشها، ذلك ما خلص اليه نيتشه لقد علمتني ذاتي عزة جديدة أعلمها الآن للناس، علمتني أن لا اخفي رأسي بعد الآن في رمال الأشياء السماوية، بل أرفعها رأسا عزيزة ترابية، تبدع معنى الأرض. (فريدريك، العلم المرح)

ان فعل تجاوز الذات لذاتها معناه التوق الى السمو والرفعة، وهو كذلك يوحي أن الانسان كائن يجب أن يتفوق على نفسه، فماهو اذن الا وسيلة وليس على الاطلاق غاية في ذاته فما الانسان الا حبل منصوب بين الحيوان والانسان المتفوق. (فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938) وحيث هو كذلك فالحل في تصور نيتشه لأزمة القيم سيكون بيد الانسان الأعلى. الانسان المتفوق الذي تستنجد به الحضارة الغربية المعاصرة بماهو الحامل لراية التغيير وقلب القيم أو التحويل الكلي للقيم إني آتيكم بنبأ الانسان المتفوق، فما الانسان العادي الا كائن يجب أن نفوقه فما أعددتم للتفوق عليه. (فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938)

ان الغاية النهائية للوجود الإنساني لا تكمن في سعيه لتحقيق السعادة ولا ينبغي أن تكون كذلك، انما يجب ان تتمثل في السعي لتكثيف كل القوى للصعود بالإنسانية في سلم الارتقاء في الحياة وتحقيق كل الإمكانات الحيوية، اذ يجب ان يأتي من الانسان ما يفوق الانسان، والبشر أجمعهم لم يخلقوا الا ليكونوا (فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938)بمثابة السلم له، ومن ثمة اذا كان الانسان الذي ينبغي العلو عليه انما هو المثل الأعلى للإنسان الحديث الذي قدس العقل والروح، فتاق بذلك الى عالم آخر رسمت معالمه الكنيسة المضللة التي علمته كيف يسيطر على غرائزه ويقهرها ويتخلص نهائيا من جسده، فان مهمة الانسان الأعلى هي على العكس، انها تتجلى في إعادة بعث القيم من جديد، أي أنه سيكون على عاتقه قلب القيم بما هو الأقدر على إعادة المعنى والقيمة للحياة والأرض أنه من الأرض كالمعنى من المبنى، فلتتجه ارادتكم الى جعل الانسان المتفوق معنى لهذه الأرض وروحا لها.

ان هذا التجاوز يتمظهر عند نيتشه في خلق الانسان الأعلى الذي لا يعني انبثاقا جديدا من عدم، وليس على قاعدة ابتكار حر للذات، ولكن انطلاقا من تعديلات للغرائز الجماعية سيجد الانسان المتحرر إزاء المجتمع الجهاز العضوي هويته الخاصة، سيتوصل الى أن يخلق إمكانية وجوده الفردي. (فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، 1938) ومن ثمة يبدوا أن الغاية القصوى في التصور النتشوي هي تهيء الأرض لبزوغ فجر جديد يكون فيه الانسان الأعلى كمصدر وحيد للخلق والابداع، تلك مهمته خلق قيم جديدة تجعل الإنسانية تحي من جديد حياة الغريزة وفقا لقيم الاثبات، أي اثبات الحياة الصاعدة القوية ومن ثمة على الأقوياء الذين خلقوا من أجل أن يحكموا أن يتخلصوا من الروح الجماعية الوضيعة وأن يدربوا انفسهم على روح القوة والكبرياء، وبالتالي عليهم أن يضعوا قيمهم الخاصة، بالعمل دوما على قلب سلم القيم لصالحهم وبهذا العمل الاصطفائي تنحوا الإنسانية منحى إيجابيا يؤهلها الى مكانة الرجل العظيم، أنه أنموذج الانسان القوي، انسان المستقبل الذي يخلق باستمرار إمكانات جديدة للحياة لكن التساؤل الذي يفرض نفسه الآن، ماهي صفات الانسان الأعلى؟ وما مميزاته؟

ان الانسان الأعلى هو بعينه الانسان الديونيزي، وهو الانسان الذي انتصر على طبيعته الحيوانية ونظم فوضى انفعالاته وسما بدوافعه الى درجة الكمال، انه الروح الحرة، انه الانسان المرح الذي تخلص نهائيا من الشعور بالذنب والخطيئة، وانطلاقا من ذلك يبدوا أن أبرز ما يتسم به الانسان الأعلى حسب نيتشه أنه حر متحرر من قيم القطيع، انسان خالق لأن له القوة الكافية ليخلق قيمه الخاصة، فلا يبحث عن مبرر لأعماله ولا يرجع الى فكرة مسبقة ليعرف بها الخير والشر لأنه هو الذي يحدد الخير والشر لنفسه، وهو انسان مستقل فلا قانون له الا ارادته الخاصة، وهو مشرع القطيع،

سيده وطاغيته ومضطهده، وبذلك فهو يفرض قيمه وارادته بالقوة. (سعاد، 2000) وهكذا نلاحظ مدى التناسب بين هذه السمات لا تعبر الا عن القوة وبين المهمة التي أنيط بها الانسان الأعلى مستقبلا.

هذا ونظرا لنبل الانسان الأعلى فقد حدد له نيتشه مميزات تتوافق والصفات السابقة، ومن أهمها نجد الكبرياء باعتبار أخلاقياته كتمجيد للذات، إضافة الى الحيوية التي تعني العدوان والدعوة اليه لأن النصر بغير حرب غير ممكن، كذلك القسوة فلا يعرف الرحمة الذي يعيش في خطر ويحب المخاطرة وهي ميزة عبر عنها نيتشه بوضوح: أنني في جوهري محارب، أن الهجوم مسألة غريزية ... ان الحنين الى العدوان يمت بالضرورة للقوة، بقدر ما أن مشاعر الانتقام والضغينة تمت الى الضعف. (احمد، 2006) أخيرا نجده يتميز بالضحك حيث يضحك من ألواح القيم القديمة، باعتبار الضحك هو أحسن وسيلة لإنكارها. (احمد، 2006)

وعلى هذا الأساس فلا يمكن أن تكون غاية الإنسانية تافهة دنيئة كاللذة أو المنفعة ولا حتى السعادة، انما هي بالضرورة العمل على تأهيل الحياة لتكون أرضا خصبة يخلق منها الانسان الأعلى بما هو منهل انبعاث القيم ومبدعها لذلك لابد للقيم الجديدة أن تهيئ لظهوره، وأول ما يمهد لذلك أن يكون الانسان حرا حطم كل الأوثان السابقة، لأن مهمته الرئيسية ان يكون مبدعا خالقا للقيم.

5.خاتمة:

وخلاصة القول نشير الى أن ما رفضه نيتشه في قيم عصره والتي هي في الحقيقة ترتد لمئات السنين، انما هي مجرد نمط واحد من الأنماط القيمية الإنسانية التي لم تجسد في جوهرها الا الافول المزمن، وعليه فمن الممكن أن نخلق بجانبها أو معها أو فوقها اشكالا قيمية لا تمثل غير الانبعاث الجديد للقيم

ان العدمية بما هي فضاء جديد للتفكير تعمل على تأزيم دلالة الوجود وتطرح بشكل جذري إشكالية المعنى والقيمة، وبحكم ذلك فهي تقتضي القيام بتحويل جذري يطال سلم القيم ومعيار التقويم، وهذا القلب هو ما يشكل بالنسبة لنيتشه الفعل النقدي، ويطلق عليه التفلسف بواسطة ضربات المطرقة

6.قائمة المصادر والمراجع:

1. *نيتشه،هكذا تكلم زرادشت*1938 الإسكندريةمطبعة جريدة البصير1975 الكويت، وكالة المطبوعات
2. *المعجم الفلسفي*1982بيروت دار الكتاب اللبناني
3. *العمدة في فلسفة القيم*1986دمشق دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،
4. *محاولة جديدة لقراءة نيتشه*1999دار المعرفة الجامعية السويس
5. ، *في الفرد والحداثة عند نيتشه، مجلة أوراق فلسفية*2000القاهرةمطبعة العمرانية للاوفست
6. *نيتشه بين فلسفة التاريخ والأخلاق مجلة أوراق فلسفية، العدد الأول*، ،،2000القاهرةمطبعة العمرانية للاوفست
7. *نيتشه والفلسفة*2001لبنان المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
8. *المختصر في تاريخ الفلسفة الغربية*2006الجزائررياض العلوم للنشر والتوزيع،
9. *ما وراء الخير والشر*2006الدار البيضاءافريقيا الشرق
10. *فلسفة القيم نماذج نيتشوية*2010بيروتدار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
11. صليبا جميل. (بلا تاريخ). ، *المعجم الفلسفي* ،
12. مذكور إبراهيم. (1983). *المعجم الفلسفي*. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية.
13. نيتشه فريدريك. (1996). *افول الاصنام* (الإصدار ط1). (ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي، المترجمون) المغرب: افريقيا الشرق.
14. نيتشه فريدريك. (2010). *نيتشه وإرادة القوة* (الإصدار ط1). (ترجمة جمال مفرج، المترجمون) الجزائر: منشورات الاختلاف.
15. نيتشه فريدريك. (بلا تاريخ). *العلم المرح* (الإصدار دط). (ترجمة وتقديم حسان بورقية ومحمد الناجي، المترجمون) الدار البيضاء: افريقيا الشرق.
16. نيتشه فريدريك. (بلا تاريخ). *هذا الانسان* (الإصدار "1"). (ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المترجمون) بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
17. يسرى إبراهيم. (2007). *فلسفة الاخلاق فريدريك نيتشه* (الإصدار دط). بيروت،: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
18. *la philosophie de Nietzsche*1965, paris, les Editions de minuit
19. *Nietzsche et la métaphore*1972, Editions payot
20. Nietzche1995*Friedrich, la volonté de puissance*pariséditions Gallimard,